مدينة الخرطوم وسكانها في أدب الرحالة: الرحلة العلمية للفريد إدموند بريم (1847-1852م)

د. حماد محمد حامدين
قسم الآثار- جامعة النيلين

أ. أروى علـــي حسن
طالبة دراسات عليا قسم الآثار – جامعة الخرطوم

المستخلص:

يتنـاول هـذا المقـال وصـف مدينـة الخرطـوم وسـكانها عنـد الرحالـة الألمانـي الفريـد أدمونـد بريـم ١٨٤٧-١٨٥٢م، حيـث تنـاول وصـف المدينـة والمنـازل وطـرق بنائهـا، والمبانـي العامـة، منـزل الحاكـم العـام، السـوق، الحدائـق العامـة، سـكان الخرطـوم والسـمات الجسـمانية لهـم، وملابـس الرجـال والنسـاء والاعتنـاء بالجسـد، الديـن والتديـن، والشـخصية السـودانية الإيجابيـات والسـلبيات، وختـان الإنـاث، والطعـام وتجهيـزه وطريقـة تناولـه، وكـرم الضيافـة، الخمـر والمريسـة وأم بلبـل وأماكـن بيعهـا في الخرطـوم، وتدخـين التبـغ والتمبـاك، وكذلـك أطفـال مدينـة الخرطـوم، هـذا بالإضافـة إلى الـزواج والمـوت والأسـلحة التـي كانـت مسـتخدمة، والنظـام الإداري والقضـاء والتجـارة والنشـاط الاقتصـادي الـذي كان سـائدًا في تلـك الفـترة، والبريـد، بالإضافـة إلى حالـة الطقـس والأمـراض التـي كانـت موجـودة في الخرطـوم في ذلـك الزمـان. وخلصـت الدراسـة إلى أن مـا كتبـه الفريـد أدمونـد بريـم عـن السـودان والخرطـوم بـلا شـك قيـم جـدًا وبه مـن مـادة علميـة غزيـرة في ضروب علـوم كثـيرة منهـا الآثـار والعلـوم الطبيعيـة والأثنوغرافيـا وغيرهـا.

الكلمـات المفتاحيـة: الرحالـة، أدب الرحالـة، مدينـة الخرطـوم، الفريـد إدمونـد بريـم.

Khartoum City and their inhabitants in the travelers literature:Thescientific journey forAlfred Edmund Brehm (18471852-AD)

Hamad Mohamed Hamdeen Abdelrahman

Arwa Ali Hassan Mohamed

Abstract:

This article deals with the description of the city of Khartoum and its inhabitants at the german traveler Alfred Edmund Brehm 1847- 1852, where he dealt with the description of the city, houses and ways of building them, public buildings, the house of the Governor-General, the market, public parks, the inhabitants of Khartoum and their physical features, men's and women's clothes and body care, religion and religiosity, sudanese personality positives and negatives, and female circumcision, Food, processing and eating, hospitality, wine, marisa, um Belbel and their places of sale in Khartoum, tobacco smoking and tobacco, as well as children of Khartoum, in addition to marriage, death and weapons used, the administrative system, the judiciary, trade and economic activity that prevailed at the time, the mail, in addition to the weather and diseases that existed in Khartoum at the time. The study concluded that Alfred Edmund Brehm 's books on Sudan and Khartoum are undoubtedly very valuable and have a rich scientific subject in many types of sciences, including archaeology, natural sciences, ethnography, etc.

Keywords: Traveller, Traveller's Literature, Khartoum City, Alfred Edmund Brehm**.**

مقدمة:

للرحالة دوافع كثيرة للقيام برحلهم وتجوالهم حول العالم قاصدين أماكن ومدن بعينها، وأيًا كانت دوافع الرحالة المعلنة منها والخفية فقد أتصف أغلبية الرحالة ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عن تسجيل معلوماتهم، هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية في منهجية البحث في الدراسات الأثنوغرافية ودراسات أدب الرحالة[1].

جذب السودان منذ القدم العديد من الرحالة لشد الرحال إليه، لأسباب ودوافع تختلف باختلاف الرحالة والزمان الذي جاؤوا فيه إلى السودان والأماكن التي كانوا يقصدونها، ولقد ضم أدب الرحالة في السودان إشارت كثيرة للمدن السودانية ومن ضمن هذه المدن كانت مدينة الخرطوم التي نالت حظًا وافرًا من الوصف عند أحد أهم الرحالة الألمان الذين زاروا السودان في الفترة من ١٨٤٧-١٨٥٢م ألا وهو الرحالة الفريد إدموند بريم ورحلته العلمية للسودان، والتي كانت إحدى نتائجها جمع أكثر من ألف وأربعمائة نوع من أنواع الطيور بالإضافة إلى الحيوانات الأخرى والتي قدمها إلى حديقة الحيوان في برلين، هذا بالإضافة إلى رسومات الطيور والحيوانات ودراسته والتي شكلت بصورة أو أخرى مرجعًا لا غنى عنه لدراسات علم الحيوان والطيور للكثير من الباحثين في ألمانيا. وإن قمنا بعمل استطلاع صغير للرحالة الألمان، بمعنى الرحالة الذين سجلوا مشاهداتهم باللغة الألمانية أو كانوا ألمانيي المنشأ، بحيث يدخل السويسريون والنمساويون في هذا الأمر نجد أسماء كالرحالة إدوارد ربل Edward Ruepple الذي تجول في مناطق شمال السودان وفي كردفان بغرب السودان ما بين عامي ١٨٢٥-١٨٣٦م والسيد فون هويجلينVon Heuglin الذي قصد إفريقيا الشمالية والبحر الأحمر عام ١٨٦٠م، ومبعوث امبراطورية النمسا السيد أنتون فون بروكشAntun Von Prokesh مابين عامي ١٨٢٦-١٨٣٣م والجيولوجي النمساوي جوزيف فون روسيجرJosef Von Russegger بين عام ١٨٤٦-١٨٤٩م ومن الرحالة الفريد إدموند بريم الذي وجدت مشاهداته وخلاصاته اهتمامًا أكبر من قبل الباحثين مستقبلًا لطابعها العلمي والبحثي في مجال البحث البيولوجي والجيولوجي(٢)وهنالك غوستاف ناختيقال و وليم يونكر وغيرهم.

والجدير بالذكر نجد أن الفريد إدموند بريم لا يعد من الرحالة المعروفين لدارسي الآثار وأدب الرحالة في السودان ولم يحظِ بالاهتمام بقدر الآخرين بعد، ولعل ذلك ربما يرجع إلى أن نص الرحلة كان مكتوبًا باللغة الألمانية في شكل يوميات ولم ير النور إلا في عام ٢٠١٠م بعد ترجمته إلى العربية بواسطة النور عثمان أبكر، وبرغم بعض الأخطاء في ترجمة عنوان الكتاب ويوميات بريم، إلا أنه يعتبر جهدًا مقدرًا منه لنقل هذا اليوميات من الألمانية إلى العربية. وكذلك من الأسباب نجد أن طابع الرجل ورحلته كان طابعًا علميًا حيث تم الاهتمام به من قبل دراسي العلوم الطبيعية خاصة البايولوجية منها» علم الحيوان خاصة الطيور» أكثر من دارسي العلوم الإنسانية. وسوف تركز هذه الورقة على الفصل الخامس من يوميات الرحالة الفريد إدموند بريم والتي كانت بعنوان «الخرطوم وسكانها» حيث قام بوصف مدينة الخرطوم وسكانها وصف دقيقًا، وبالتالي خلف لنا مصدرًا مكتوبًا عن مدينة الخرطوم في الفترة ١٨٤٧-١٨٥٢م وهو الأمر الذي يساهم في معرفتنا لتاريخ المدينة السودانية من حيث المكان والزمان والإنسان.

الفريد إدموند بريم:

الفريد إدموند بريم من مواليد عام ١٨٢٩م في رينتيندروفRentendrof في تورينغينThuringen، كان أبوه من رجال الدين ومن الذين عملوا في مجال الأبحاث العلمية وبخاصة في حقل البحث العلمي المتعلق بالطيور، حَط الفريد بريم رحاله بالقاهرة أولًا في نهاية سبتمبر عام ١٨٤٧م ثم انطلق بعد ذلك إلى السودان وبعد مضى مائة يوم من السفر وصل إلى الخرطوم في السابع من يناير لعام ١٨٤٨م. من ثم بدأ رحلة الصيد في الغابات على ضفاف النيل الأزرق والأبيض التي دامت قرابة سبعة شهور طاف خلالها في كردفان إلى أن عاد إلى الخرطوم مرة ثانية في نهاية أغسطس محملًا بالحيوانات والطيور منها ما كان قد نفق ومنها لا يزال حيًا وغادر بعدها متوجهًا إلى القاهرة مرة ثانية وقد بلغها في نهاية أكتوبر عام ١٨٤٨م. في العام ١٨٤٩م عاد إلى السودان بصحبة أخيه أوسكار الذي مات في دنقلا غرقًا في النيل، وبلغ هو الخرطوم لا يملك شيئًا وكان مريضًا جدًا وقضى فترة نقاهة في رعاية المحافظ العثماني والذي تفضل عليه بكرمه وقدم له مبلغًا من المال من دون مردود واستطاع بهذا المال أن يحقق رغبته للقيام برحلة صيد على ضفاف النيل الأزرق مر

فيها بكل من سنار والروصيرص ووصل حتى الحدود الإثيوبية، جمع خلالها أكثر من ألف وأربعمائة نوع من الطيور. بعد عودته قضى بريم الصيف كله في الخرطوم حيث بدأ ينسق وينظم رسوماته ومخطوطاته التي كانت حصيلة رحلته، ثم أقرضه لطيف باشا المحافظ العثماني آنذاك مبلغًا من المال من خزينة المدينة حتى يتمكن من العودة إلى القاهرة حيث قضى الشتاء بها ومن ثمة عاد إلى ألمانيا محملًا بمجموعة كبيرة من الطيور والحيوانات التي قدمها إلى حديقة الحيوان في برلين وقد استمرت رحلته هذه قرابة الخمس سنوات [٣].

درس بريم العلوم الطبيعية وعلم الحيوانات في مدينة Jena بشرق ألمانيا وفي فينا Wien عاصمة النمسا حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة وكان عضوًا في أكاديمية القصر العلمية للباحثين في علم الطبيعة. وقد عمل مدرسًا في المراحل الثانوية بمدينة لايبتسيغLeipzig وله عدة منجزات وأبحاث عملية منها « حياة الحيوان» و» علم في حياة الطيور» و» رواق الحديقة» و»عالم الطيور» و»حيوانات الغابة» وهذا الأخير كان سبب شهرته، ثم نشر « مصور عالم الطيور» تنقل في رحلاته العلمية ما بعد السودان ومصر في ألمانيا والبرتغال وأسبانيا وبعد آخر رحلة له في جنوب أمريكا توفي في ١١ نوفمبر ١٨٨٤م عن عمر يناهز الخامسة والخمسين عامًا [٤].

1.وصف مدينة الخرطوم:

في وصفه لمدينة الخرطوم أشار بريم إلى أنه « ..كانت ثمة قرية صغيرة تسمى الخرطوم علي ملتقى النيلين الأزرق والأبيض، وقد اختيرت لتكون عاصمة مملكة السودان وفي سنة ١٨٢٣م بنيت أولى القطاطي للجنود على مسافة قريبة من القرية وعلى ضفة النيل الأزرق لجودة مياهه كمياه للشرب...»[٥].

« .. وقبل أن يدخل المرء المدينة يمر بمنطقة ترابية مغطأة بالطحلب والأعشاب النتنة وسد بني لحماية المدينة من فيضان النهر، وهكذا يدخل المرء المدينة من شارعها الرئيسي الذي يفضي إليه هذا الطريق، وهذا الشارع يشق المدينة من الغرب إلى الشرق ويدخل سوقها ويغني وصف أي شارع في الخرطوم عن وصف بقية شوارعها، فهي ترابية مغبرة في زمن الجفاف ومليئة بالحفر وبرك المياه في موسم الأمطار، وتطغى عليها في كل الأوقات رائحة نتنة وحرارة شديدة فوق تصور أي إنسان متحضر وتؤدي الشوارع كلها إلى السوق أو إلى إحدى البنايتين الحكوميتين وهي ليست بالشوارع العريضة إلا في ما ندر،

بل هي بالأحرى ضيقة وملتوية وليست هنالك ميادين عامة في المدينة وإن وجدت فهي غير ذات جدوى» [٦].

«... وتفصح المدينة القائمة اليوم بوضوح عن الكيفية التي بدأت بها، فالناس قد بنوا أول الأمر وفق هواهم ودون أي خطة شاملة، وقد استغل ذلك كل من بنى، ولذا تجد الحدائق الكبيرة وسط المدينة وتفتقد الإحساس بأن يكون البناء قد تم وفق خارطة للمدينة...»[٧].

2.المنازل وطرق بنائها:

أما عن منازل الخرطوم في تلك الفترة وعن طرق ومواد بنائها فقد أوضح بريم أن «.... المنازل من طابق واحد أرضي في الأعم، وسقوفها مسطحة ويكون كل بيت كبير وحدة واحدة مقفولة في ذاتها فيما لو كان مُلكًا لتركي أو قبطي أو عربي ثري، ويتكون كل منزل من قسمين منفصلين قسم للرجال وآخر للنساء أو الديوان أو الحريم كما يقولون في مصر، ويتم بناء الدانقة وجمعها دانقات بطريقة غير منتظمة منذ البداية والدانقة هي المنزل المبني من التراب...»[٨].

كذلك أشار «... ويحتفر التراب اللازم لعمل الطوب الأخضر قريبًا من مكان البناء، ثم يترك الطوب ليجف تحت الشمس. ونسبة لطغيان الحرارة يجف هذا الطوب سريعًا ويمسى صالحًا للبناء. وتقوم الجدران لارتفاع معلوم ثم تجهز لبناء السقف. والسقف هو أكثر ما يعتنى به من أجزاء البيت، ولذا فهو أكثر كلفة، وقد يقام على كمرين سميكين متينين من خشب السنط، وقد وضعا في الحائط على مسافة قدم ونصف أو قدمين، ويعارض فوقهما عدد من العيدان الرفيعة المرصوصة في تلاصق وتجاور، وتسمى الرصاص وتجلب عادة من غابات بعيدة. ويوضع فوق هذا الرصاص صفان من البروش المصنوعة من سعف النخل وفوق هذا يتم وضع ما يجعل السقف مانعًا للماء من التسرب إلى داخل الغرفة، وهو بناء طبقة ترابية بسمك عدة بوصات تدك جيدًا وتسطح. وبعد كل عاصفة رعدية ممطرة يشاهد المرء سكان الخرطوم منهمكين في إصلاح سقوف منازلهم. وغالبًا ما تكون سبلوقة تصريف الماء مسدودة، وفي هذه الحال تتجمع المياه في السقف في بركة وتتسرب إلى الداخل. وقد تتسبب في هدم البيت كله. ولقد حدث أن مات كثيرون بسبب انهيار سقف البيت...» [٩].

«... والمنـــزل مـــن الداخـــل يشـــبه خارجـــه. فالأرضيـــة مـــن تـــراب مكـــوك وتفـــرش بالحصـــير وتوضـــع عليهـــا مســـاند للجلـــوس، وفيمـــا نـــدر يجـــد المـــرء مـــا يزيـــن الجـــدران الداخليـــة الترابيـــة المســـطحة، والتـــي تطـــلى بالجـــير الأبيـــض في بعـــض المنـــازل والنوافـــذ فتحـــات عليهـــا قضبـــان متقاربـــة أو متباعـــدة ومثلهـــا الأبـــواب والتـــي لا يمكـــن إغلاقهـــا إلا في بعـــض المنـــازل. ولا يـــرى المـــرء قفـــلًا أو ترباسًـــا أو أي شيء مـــن الحديـــد، وحتـــى الأقفـــال الخشـــبية المصريـــة العاديـــة قليلـــة ونـــادرة...» [١٠].

كذلـــك أيضًـــا أشـــار إلى إيجـــار المنـــازل ومـــا فيهـــا مـــن مشـــاكل حيـــث قـــال: «... وأســـوأ مـــا في الخرطـــوم هـــو مـــا يعانيـــه القـــادم الجديـــد إليهـــا مـــن جهـــة الســـكن فعندمـــا يســـتاجر الغريـــب منزلـــه فإنـــه يعطـــى دائمًـــا أســـوأ بيـــت لأن المنـــازل الأفضـــل قـــد اســـتأجرها مـــن هـــم أطـــول إقامـــة منـــه، ومـــن ثمـــة عليـــه أن يقـــوم بتجهيـــز كل شيء، لأن صاحـــب البيـــت لا يقـــدم لـــه أكثـــر مـــن الحيطـــان الأربعـــة. عليـــه أولًا أن ينظفـــه مـــن الداخـــل مـــن الحـــشرات والهـــوام فـــكل الزوايـــا المعتمـــة تأويهـــا في مواســـم الأمطـــار العقـــارب والثعابـــين والســـحالي القبيحـــة والزنابـــير ومـــا هـــو أســـوأ. وعـــلى المـــرء ألا يدخـــل أو يخـــرج مـــن أي غرفـــة دون أن يحمـــل نـــورًا في الأمســـيات لوجـــود هـــذه وخطرهـــا. وقـــد وطئـــت قدمـــي ثعبانًـــا ســـامًا للغايـــة في مدخـــل مظلـــم لكـــن لحســـن الحـــظ كان منشـــغلًا بابتـــلاع طائريـــن مـــن الســـنونو كان قـــد قتلهمـــا. إن المـــرء يعتـــاد رؤيـــة العناكـــب الضخمـــة والعقـــارب فيراعـــي الاحتياطـــات اللازمـــة لســـلامته. أمـــا الضـــب الـــذي يخـــرج ليـــلًا ويتجـــول ملتصقًـــا بأرجلـــه عـــلى الحيطـــان أو الســـقف فهـــو ذو فائـــدة فعليـــة، ويرتـــاح المـــرء لمـــا يصـــدره مـــن صـــوت. وعـــلى النقيـــض منـــه تلـــك الحـــشرات التـــي تدخـــل وتـــسرح وتمـــرح في الغـــرف نهـــارًا كالذبـــاب وليـــلًا كالبعـــوض فالنوافـــذ مشرعـــة لهـــا، ممـــا يجعـــل المـــرء يقـــاسي الأمريـــن نهـــارًا مـــن الذبـــاب وليـــلًا مـــن الناموس دون أن يســـتطيع أن يفعـــل شـــيئًا..» [١١].

3.المباني العامة:

كان في الخرطـــوم في تلـــك الفـــترة التـــي زارهـــا عـــدد قليـــل مـــن المبانـــي العامـــة حيـــث أورد أن»... الخرطـــوم فقـــيرة مـــن ناحيـــة المبانـــي العامـــة، وهـــي في الواقـــع تنحـــصر في منـــزل الحاكـــم العـــام ومديـــر أو محافـــظ الخرطـــوم والبـــازار والمستشـــفى العســـكري، وهـــي مبـــان حكوميـــة يجـــدد بناؤهـــا مـــرارًا. وهي تفـــي بأغراضهـــا إلى حـــد كبـــير وإذا أراد المـــرء أن يضيـــف بعـــض المؤسســـات الخاصـــة إلى المبانـــي العامـــة يمكنـــه أن يعـــد الكنيســـة القبطيـــة والكنيســـة الكاثوليكيـــة والمدرســـة المســـيحية التابعـــة للكنيســـة الكاثوليكيـــة» [١٢].

4.منزل الحاكم العام:

ومن المباني العامة والرئيسية والتي تعتبر معلمًا مهمًا كان هنالك مبنى الحاكم العام حيث أورد بريم «... ويقع بيت الحاكم العام في الجزء الشرقي من المدينة على ضفة النيل الأزرق مباشرة، وله ميدان واسع أمامه، لا اسم له يحمله، وفي زمن لطيف باشا (١٨٥٠-١٨٥٢م) ألحقت به إضافات وتحسينات وكان فيما مضى مثل بيوت الخرطوم مبنيًا من الجالوص، أما الآن فإن جدرانه الأرضية من الطوب الأحمر، ويتكون من قاعة استقبال أو ديوان الباشا ومكاتب موظفيه وغرفات سكنى عماله والإرشيف وعدد من السجون وحرس قوي ومكان حريمه وتحيط به حديقة حسنة...» [١٣].

وكذلك هنالك المستشفى العسكري «... وبفضل جهود الأطباء الأوربيين، فقد جهز المستشفى العسكري بشكل يرضي المرضى. عنابر المرضى عالية، نظيفة، متجددة الهواء، والعناية الطبية مرضية وقيام الأطباء بالعلاج حسن جدًا إذ على الأقل انتهى زمن الدجالين ومدعيي الطب. ولكن لم يتم مع الأسف عزل القشلاق عن المستشفى، وهي مبانٍ فقيرة وقد خصصت لسكنى الجند المساكين وعوائلهم ...»(١٤).

5.السوق:

أيضًا من معالم مدينة الخرطوم في تلك الفترة سوقها «... وككل مدن المسلمين فإن السوق هو مركز المدينة الاجتماعي . ولذا رتب بعناية، وبه الجامع وعدد من البازارات وقد بني الجامع من الطوب وهو حسن المنظر رغم بساطة بنائه، أما المئذنة فهي من اللبن وليس بها أي تزويق وبالقرب من الجامع صالتان مهمتان للبيع، وبين الصالتين يوجد سوق الرغيف، وهنا يجلس الخبازون المصريون تحت مظلات شمسية ضخمة، ويعرضون رغيف القمح بينما تبيع السودانيات الكسرة والقراصة لأهل البلد، وتجاور سوق الرغيف أسواق اللبن والفاكهة والخضروات ووسطها تقوم المشنقة. والفظيع في الأمر أن الناس تغدو وتروح في شراء حاجياتها عندما يشنق إنسان، ولا يبدو أن الجنائية أو بائعات السمن يكترثون لذلك، ومن هنالك يعبر المرء من سوق العيش إلى سوق التبغ (التنباك) الذي يجاوره سوق السمن والعلف وتوجد الذرة والقمح مفروشة على الأرض الجرداء ويباع التنباك في زقاق ضيق يملأ هواءه غبار التبغ الجاف، وفي سوق السمن يباع الودك المستخلص من شحم

البقـر أو الغنـم وهـو يسـتخدم للدلكـة ... ويبـاع القـش اليابـس والقصـب وأعـلاف أخـرى»[١٥].

6.الحدائق العامة:

وبالنسـبة للحدائـق والجنائـن في الخرطـوم فقـد ذكـر «... والحدائـق القائمـة عـلى ضفـة النيـل الأزرق هـي بهجـة الخرطـوم. فخضرتهـا الزاهيـة تـسر الناظريـن خاصـة، حيـث تحيـط بالمدينـة مسـاحات جـرداء، وفاكهتهـا منتعشـة مقارنـة مـع بعـض أشـجار أواسـط إفريقيـا التـي لا تحمـل ثمـراً، ويوجـد بهـذه الحدائـق العنـب والليمـون والتـين والتـين الشـوكي والمـوز والقشـطة . أمـا أشـجار النخيـل فهـي عنـد نهايـة حدهـا الجنوبـي وحتـى إن كانـت مـن النـوع الجيـد فهـي ليسـت جيـدة الثمـر هنـا»[١٦].

7.سكان الخرطوم:

أورد بريـم بعـض القبائـل والإثنيـات التـي كانـت موجـودة في الخرطـوم في تلـك الفـترة حيـث ذكـر «تسـكن الخرطـوم عنـاصر مختلفـة وإن لـم تكـن مختلطـة كمـا في القاهـرة ويمكـن تقديـر سـكانها بحـوالي ثلاثـين ألـف نسـمة منهـم قرابـة الثلاثـة آلاف مـن السـود في الخدمـة العسـكرية، ونجـد في الخرطـوم الأتـراك والأوربيين والإغريـق واليهـود والقـالا وأربعـة أو خمسـة أجنـاس مـن السـود كالفـور والشـلك والدينـكا ومـن تقـلي وأعـالي النيـل الأزرق. وكان الـترك الموجـودون في شرق السـودان ومـصر محتقريـن مـن أبنـاء بلدهـم لتخليهـم عـن عاداتهـم ولكنهـم مـع ذلـك أرفـع رتبـة مـن وجهـة نظـر أخلاقيـة مـن الأوروبيـين الموجوديـن بالخرطـوم لأن الأخيريـن باسـتثناء قلـة هـم حثالـة شـعوبهم. والإغريـق واليهـود هـم كمـا هـم في بقيـة أنحـاء العالـم، أمـا المصريـون فقـد احتفظـوا بتقاليدهـم وعاداتهـم»[١٧].

« ونقصـد بالسـودانيين كل الذيـن يعمـرون أراضي النيلـين الأزرق والأبيـض وهم سـمر في اللـون وقبـل قـرون عديـدة امتزج سـكان السـودان الأصليـون -الفونـج – مع الشـعوب المحيـط بهـم ولـذا فـإن المـرء لا يسـتطيع أن يتحـدث عـن عنـصر خالـص وفي الوقـت الحـاضر، يعتـبر الأحبـاش المقيمـون في السـودان والنوبيـون المهاجـرون في عـداد السـودانيين. ويمكـن تقسـيم السـكان إلى اهـل مـدن وقـرى صغـيرة وبـدو رحـل، مـن الرحـل الحسـانية وبنـو جـرار والكبابيـش والبشـارية والبقـارة وآخـرون وهـم يختلفـون في السـمات الجسـمانية والعـادات والتقاليـد بعـض الاختـلاف، لكنهـم بحكـم نـوع الحيـاة التـي يحيونهـا لا يمكـن الخلـط بينهـم وسـكان المـدن والقـرى

المستقرة. والسودانيون كلهم أحرار بالمولد ولا يجوز بيعهم كرقيق»[١٨].ولكن من الأشياء المهمة التي أشار إليها بريم هنا هي عدم القدرة على الحديث عن عنصر عرقي خالص في الخرطوم في تلك الفترة، وهذه إشارة إلى التمازج والانصهار العرقي لهذه الإثنيات العرقية من زمن بعيد.

8. السمات الجسمانية :

أما من ناحية السمات الجسمانية فقد ذكر بريم « أن السودانيين عادة ذوي قامات مربوعة أو طويلة، أقوياء وبهم طاقة هائلة على التحمل أحيانًا، ورجالهم أجمل من نسائهم « [١٩].

9.ملابس الرجال:

من الأشياء التي لفتت انتباه بريم هي ملابس الرجال والنساء، وقد ذكر في وصفها « ...فالرجال يلبسون السراويل الفضفاضة البيضاء التي تصل إلى الركبة أو أدنى ويسمون السروال «اللباس»، ويلبسون الفردة -الثوب- التي يبلغ طولها ستة عشر قدمًا وعرضها أربعة أقدام وهي من القطن ورمادية اللون، وبها خطوط حمراء أو زرقاء في الحاشية، وينتعلون الصندل، ويغطون الرأس بالطاقية، وترى على الذراع الأيسر سكينًا بيتها من الجلد مربوطة بسير من الجلد المضفور، كما يغلب أن يلبس الواحد منهم أكثر من حجاب في شكل أسطوانات من الجلد، ولا يخلع الرجل حجباته أو سكينه وتستخدم السكين في الأغراض العادية أو للدفاع عن النفس كما أن الحجاب يجد منهم كل تقدير ويؤمنون بأن الآيات القرآنية المكتوبة في ورق الحجاب تحمي من أمراض كثيرة. ويلبس بعضهم المحفظة وهي من جلد ولحفظ النقود والأوراق المهمة وبها خمسة جيوب، وهي مشغولة وحسنة، كما يرى بعضهم يحمل السبحة ومحركًا حباتها دون تفكير بين أصابعه. وهم يحلقون شعور رؤوسهم من حين إلى آخر، والموس التي تستخدم سيئة، وتشحذ على جلد المركوب -الصندل، ومن حين إلى آخر يشاهد المرء كظاهرة من زمن ماضٍ سحيق جماعة من البدو من جهة أتبرا أو داخل الجزيرة بشعورهم الطويلة التي ترتفع إلى ست بوصات، وتدهن بالودك، ويشكون فيها خلالين من خشب أملس طول أحدهما تسع بوصات ومقابضها حسنة الشكل، ويستخدم هذا الخلال لجلب الراحة للرأس المليء بالقمل»[٢٠].

10.وصف نساء الخرطوم وملابسهن:

أما وصف نساء الخرطوم وملابسهن فقد أشار إلى أنه «ويمكن وصف نساء الخرطوم بالقبح فهن يدقن شفاههن ويضعن عليها زرقة على غرار نساء البادية وملابسهن بسيطة ولا تختلف إلا قليلًا من مكان إلى آخر ... وملابس النساء بمثل بساطة ملابس الرجال فالصبايا يلبسن الرحط حتى يتزوجن، وهو مصنوع من مئات السيور الجلدية وموشى بأهداب كما بالودع وهو رمز إلى عذرية الفتاة، ويستبدل يوم زواجها بمئزر قطني، وتلبس المرأة الحجاب لا كالرجال على ذراعها بل تتركه يتدلى بسيور جلدية تحت المئزر، وتعتقد في قدرة الحجاب على حمايتها من أمراض عديدة وخاصة ضد العقم، كما يلبسن الفردة أيضًا ولكن بطريقة مختلفة عن الرجال. والفردة النسوية من قماش يختلف وهي من نسيج شفاف يبرق من تحته لون البشرة السمراء ويلف الجلد والجسد بها حتى القدمين ويبقى الوجه وحده مكشوفًا وينتعلن الصنادل ويلبسن زمامًا من النحاس أو الفضة في الأنف، وكان من الذهب فيما مضى، ويبدو الوجه بهذا الزمام والشفة الموشومة منفرًا للغاية ويود المرء لاعتبارات جمالية لو أن الوجه قد خلا منها. وكما في كل مكان آخر فإن النساء في السودان يبحثن عن كل ماهو باذخ، ولذا فإن الصندل النسائي مكلف أكثر من صندل الرجل، كما أن كوافيرهن،المشاط، مكلف جدًا وتقوم به نسوة خبيرات به، ويستخدم في دهن الشعر الودك ومواد زكية الرائحة «[٢١].

11.الاعتناء بالجسد:

وكان كل من الرجال والنساء يقومون بالعناية بأجسادهم وذلك عن طريقة المسوح واستخدام الدلكة حيث ذكر بريم « ويعتني الجنسان بالمسوح وتدليك الجسم من حين إلى آخر لحماية الجلد من التشقق واليبوسة، وحفظه لينًا، وقد أكد لي الأطباء الأوربيين الذين قضوا وقتًا طويلًا بالسودان أن ترك الدلكة والمسوح يصيب الجسم بأمراض جلدية ويستخدم النوبيون والسود هذه الدلكة التي تكسب جلد السود لمعانًا وبريقًا لا مثيل له في أوروبا. إن نساء السود يكتسبن نعومة في الجلد بدرجة عالية لا تعرفها نساء أوروبا وكانت العادة قديمًا في السودان أن تقوم إحدى الجواري بتدليك الضيف العزيز، والدلكة مثل دهن الرأس تأسن بعد حين وتصبح ذات رائحة مقيتة « [٢٢].

12.الدين والتدين عند السوداني:

أما فيما يتعلق بالدين والمسائل الدينية «..ليس لديهم كمسلمين أي تشريع منصوص في الوقت الحاضر، فالقرآن عندهم هو الكل في الكل، إنه يعلمهم أن يستبينوا الحلال من الحرام، الخير والشر، ويحدد عقوبات المخالفات، وبه القوانين التي حكم بها محمد - صلى الله عليه وسلم- جنوده ورفاقه وتابعيه. ومما يؤسف له أن هذا الكتاب الديني الممتاز قليل التداول في السودان. ولهم جامع في بلادهم الشاسعة -الخرطوم، ولا يعرفون من دينهم إلا المسائل الأساسية وبشكل تقليدي. فهم مسلمون اسمًا دون معرفة بالشريعة أو فهم لها وحين يقومون ببعض الفروض يحسبون أنهم قد قاموا بالكثير..»[٢٣].

13.الشخصية السودانية الإيجابيات والسلبيات:

في تناوله لسلوك الشخصية السودانية أورد بريم العديد من المظاهر الإيجابية «.. تشبه شخصية السودانيين المعاصرين شخصية نصف المتمدنين، ولكنها اكتسبت عبر ديانة ممتازة بالنسبة لظروفهم بعض الخصائص النبيلة. وعندما يأخذ المرء الجوانب المضيئة والمظلمة في حياتهم ويقابل بينها فإنه يستطيع أن يجزم بلا تردد أنهم في الأصل أناس خيرون، كرماء للضيف، يقدمون القرى للغريب بغض النظر عن فقرهم أو ثرائهم، فهم لا يدركون أنهم فقراء، ويعينون المحتاج ويطعمون الجائع. وهم يرعون العهد ولا يتنكرون لكلمة قطعوها وعدًا، ويرعون ما عهد إليهم من أمانة أكثر مما لو كان ملكًا لهم، ويحبون أطفالهم ويحترمون الوالدين، ويعتبرون حسن الضيافة من الواجبات المقدسة، ويقومون بها في حرص وصرامة «[٢٤].

أما السلبية في السلوك السوداني».. ولكن هناك السوداني الذي يكذب، ويخدع، ويسرق متى تمكن من ذلك وهو نهم للذة الحسية، وكسول، وأحمق، ولا يحب العمل، ومهمل. والسودانيون عمومًا مثل كل الشعوب الجنوبية متهورون وسريعو الهيجان، ومازالوا بالثقافة والعادة أبناء الطبيعة بالسليقة. وهم يشتعلون غضبًا كالقش ويقومون بأي عمل دون تدبير، لكنهم يندمون على ذلك بعد وقت قصير. وكان القتل في الماضي أمرًا عاديًا، لكن الحكومة قد فرضت عقوبات صارمة حدت منه. وقبل الحكم التركي كان الثأر شيئًا عاديًا متفشيًا، وكان القتل والضرب المميت من الأمور اليومية. وكانوا يسوون أمورهم فيما بينهم. ومازالوا يفعلون حتى يومنا هذا عندما يرون أن الحكومة

لـن تعـرف. ومـا كان ملوكهـم يهتمـون كثـيرًا بخصومـات رعيتهـم الشـخصية، ولـذا يسـتغربون تدخـل الحكومـة الحاليـة فيهـا، فهـي صغائـر لا تخصهـم في ظنهـم... ينغمـس السـوداني في الملـذات الحسـية، وهـو خامـل، كسـول، مهمـل، أحمـق. وهـو بسـيط في ملبسـه، مقـل في صرفـه عـلى طعامـه، مبـذر في الـصرف عـلي فتيـات الهـوى، وهـن في الغالـب مـن الجـواري اللائـي اعتقـن أو بناتهـن، وهـو كثـير السـكر بالمريسـة «[٢٥]. لعـل هـذه الوصـف فيـه أسـلوب انصـافي واضـح حيـث التـوازن مـا بـين الإيجابيـة والسـلبية لسـلوك الشـخصية السـودانية ولعـل هـذا الأمـر مفقـود في العديـد مـن أدب الرحالـة في السـودان.

14.ختان الإناث:

أمـا بالنسـبة إلى مسـألة ختـان أو خفـاض البنـات فقـد ذكـر بريـم «... خفاض الفتـاة فهـو ليـس شرعًـا محمديًـا وهـم يمارسـونه وغالبًـا مـا تتـم العمليـة الفظيعـة والفتـاة بنـت خمـس أو سـبع سـنين، وتأخذهـا النسـوة العجائـز ويجريـن بمـوس خفـض الأجـزاء المعنيـة وبـذا يلحقـن بالفتـاة آلامًـا فظيعـة، وغالبًـا مـا تظـل الفتـاة لمـدة أربعـة أسـابيع ورجلاهـا مقيدتـان معًـا فـوق العنقريـب، قبـل أن يـبرأ جرحهـا. كمـا في ختـان الأولاد الذكـور تقـام احتفـالات كبـيرة في طهـور البنـات، وقبـل أيـام مـن العمليـة يؤخـذ في الغنـاء والرقـص والضوضـاء والـشرب حتـى وقـت متأخـر مـن الليـل، وتـشرك بنـت الطهـور في كل ذلـك وأثنـاء العمليـة يشـتد الاضطـراب والضوضـاء أضعافًـا وتصبـح الحفلـة أكثـر بذخًـا ويرتفـع دوي الدلوكـة– الطبـل– والزغاريـد وربمـا كانـوا يحاولـون تغطيـة آلام الفتـاة إذ بعـد انتهـاء العمليـة تنتهـي هـذه الفنتازيـا ويصمـت جميـع المحتفلـين «[٢٦].

15.التبرير للسلوك السلبي للشخصية السودانية:

وبالرغـم مـن كل السـلبيات والإيجابيـات في السـلوك السـوداني إلا أن بريـم قـد أورد بعـض الاسـباب خاصـة الطقـس والمنـاخ ومالهـا مـن تأثـير في مثـل هـذه السـلوكيات حيـث قـال « وسـأحاول أن أقـدم تبريـرًا ودفاعًـا عـن السـوداني، وذلـك بإلقـاء اللائمـة في كل هـذه العيـوب عـلى طقـس البـلاد. ومـن يسـتطيع أن ينكـر أن للطقـس أثـرًا كبـيرًا في تكويـن العقـل كمـا في تكويـن الجسـم وحتـى القـادم مـن جـزء آخـر مـن العالـم يتأثـر بهـذا الطقـس. والـذي يعيـش فـترة في البـلاد الحـارة يـدرك كيـف يصبـح أنشـط الأوروبيـين خامـلاً، فالحـرارة في الخرطـوم في أيـام السـموم تبلـغ ٤٠ درجـة مئويـة في الظـل، فتشـل الجسـد، وهنـا أكثـر مـن أي مـكان

آخر ينصح المرء بالقيام بالأعمال الذهنية الخفيفة، إذ إن المرء يصبح دونها خاملًا حتى يقعد في النهاية عن أي حركة ويهتم فقط براحته ومسكنه البارد. وبذا يعجل بنهايته. إن الأوروبي يعرف تأثير الجو الحار، ونتائج الترف الجسدي ومع ذلك فإنه نادرًا ما يتجنبهما، والسوداني أقل منه تجنبًا لهما، فهو يبالغ في فسقه وملذاته ولا يدري إنه بذلك يقصر أجله. أما كسله فهو نتيجة لعلاقاته، فهو عندما يعمل حقًا فإنما ذلك لتأمين احتياجات حياته وذويه، لكنه يحتاج القليل، وبلده مباركة الخصب والعطاء الأمر الذي يمكنه من توفير ما يريد دون عناء. فلماذا يشقى نفسه بالعمل؟ ولماذا يفعل ما لم يأمره به دينه؟. ودينه يسمح له بأن يستمتع بحياته بطريقته وأسلوبه، إذ يعلمه أن الله كريم وموته مكتوب وحياته قدر. ولذا فهو يعيش يومه دون هم. وفي النهاية يعمل السوداني قليلًا جدًا، فهو يستلقي في داره في عنقريبه الناعم يهنا براحته. وتبدأ حياته الفعلية مع غروب الشمس، لكنها ليست حياة عمل، بل حياة المتعة. فهو في نصف عريه يرقد في استرخاء وأمامه برمة المريسة الكبيرة يشرب منها بالقرع، ويتم كيفه إذا كانت تسقيه امرأة جميلة، ويقضي نصف الليل مع جميلته وبرمته، وقد أسكره الحب والمريسة، فلماذا يشغل نفسه بضوء النجوم في ليل الاستواء الصحو أو بالله ورسوله أو بالعمل وأربابه؟ إنه يحيا لنفسه وامرأته ومريسته، والله كريم ويغفر للمذنب «[٢٧].

16.الطعام وتجهيزه وطريقة تناوله:

للطعام أهمية تتعدى كونه وسيلة لتغذية الجسم بغية الحياة، ولأن الطعام يرتبط أيضًا بالبيئة والاقتصاد وبالدين والمعتقدات الشعبية وربما بكافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية والفكرية وعلى هذا الأساس يشكل مركبًا حضاريًا كما أن طهيه وأدب تقديمه وتناوله ماهي إلا مظاهر سلوكية فريدة اختص بها الإنسان وميزته عن الحيوان. ويمكن أن يزودنا الطعام بالكثير عن المعلومات والإيضاحات عن أوجه الحياة المختلفة من اقتصاد واجتماع وثقافة تلك المجتمعات [٢٨].

أما عن الطعام لدى سكان الخرطوم فقد أشار بريم إلى أن « ... مأكل السودانيين بسيط للغاية. لكن تجهيزه يتطلب مجهودًا وعملًا كبيرين، ولذا فهو أشق أعباء النساء، ويستغرقن اليوم بأكمله والسبب هو الطريقة الصعبة لإعداد الخبز -الكسرة- وقبل ساعتين من وقت الأكل لا يكون من الكسرة غير الحبوب، ولا يعرف السودانيون المطحنة البسيطة التي يستعملها المصريون، بل

يستخدمون في سحن الغلال المرحاكة -الرحى- وأولادها كما يقولون، والمرحاكة قطعة من صخر الجرانيت مسطحة بانحدار نحو الوسط، تسحن عليها الذرة أو الدخن بعد أن تنقع في الماء باستخدام ابن المرحاكة باليدين. وتجثوا المرأة على ركبتيها للقيام بهذا العمل المضني، وتمسك الحجر بكلتا يديها وبتحريكه لأعلى وأسفل تسحن الذرة وتبللها بالماء من حين لآخر، وتجمع العجين الخشن في فجوة في الأرض بها برمة من الفخار، ولا يكون هذا الطحين جاهزًا لصنع الكسرة إلا بعد إعادة سحنه مرتين أو ثلاث. ومع حرارة الجو، وتقاطر حبات العرق من الجسد في هذا الجو المداري تغنى الطاحنات أغنيات بسيطة مرتجلة لاتخلو من جمال. وتبرز عملية طحن الحبوب بالمرحاكة لصنع الكسرة جمال البناء الجسدي للصغيرات اللائي يقمن به»[٢٩].

« ويحرص السودانيون علي وضع الكسرة في طبق مضفور من سعف النخيل وجريده وقصب القمح ومزين بكل الأشكال الفنية وله سير جلدي ويغطى بطبق آخر هرمي الشكل مصنوع من المواد نفسها وبذات القدر من الجمال. وكلاهما أية في الجمال، ويمكن اعتبارهما من أدوات البذخ وتبرع النساء وخاصة في كردفان و ود مدني في صناعة الأشياء المضفورة» [٣٠].

أما عن بعض أنواع الطعام فقد ذكر» ويندر أن تجهز طبخات من اللحم، أما الحمام والدجاج فيتم طبخه بنوع من الفلفل الأسباني الفظيع أو قليه بالسمن أو سلقه، ولا يحتمل الأوروبي أكل هذه الطيور المعدة بهذه الطريقة السودانية، بل يحسب أنه سيختنق أو يحترق إن فعل، وأنا نفسي لم أقدر على تناول القليل منها أو تذوقه فمن ناحية المقادير يجب أن يكون ثلث هذه الطبخة على الأقل من الشطة الأسبانية. وفي بعض المناسبات الخاصة يأكل السودانيون لحم الضان المسلوق في الماء دون أي بهارات حارة. وقد أولمنى شيخ إحدى القرى بلحم ضان مشبع بالعسل وكان لذيذًا» [٣١].

« والسودانيون كمسلمين لا يأكلون إلا اللحم الحلال الطاهر، أي من ذبيح قد سال دمه من رقبته، أما ما يرمى بالرصاص من حيوان فلا يكون طاهرًا، إلا إذا كان راميه قد تلا العبارات التي تحلل اللحمة قبل أن يطلق رصاصه أو أن يذبح الحيوان بعد رميه مباشرة ويسيل دمه. وفي حال الذبح يضع الجزار المدية على عنق الحيوان ويردد باسم الله الرحمن الرحيم الله أكبر ثلاث مرات ثم يشرع في الذبح سريعًا حتى يسيل الدم من عروق ورقبة الحيوان، ثم يسلخ الذبيح ويوضع اللحم فوق الجلد المسلوخ ثم يفتح البطن ويخرج الأحشاء ويكسر اللحم إلى أجزاء صغيرة»[٣٢].

أمـا طريقـة تنـاول الطعـام» ويسـتخدم السـودانيون أيديهـم في تنـاول طعامهـم مثلهـم في ذلـك مثـل كل الشـعوب الشرقيـة، لكنهـم لا يراعـون أشـياء معينـة تجعـل هـذه الطريقـة في الأكل مقبولـة ومحتملـة عنـد الأتـراك، فالسـوداني يتنـاول قطعـة مـن الكسرة بثلاثـة أصابـع مـن يمنـاه ويغمسـها في الصحـن الـذي أمامـه ويمـلأ فمـه بمـا وسـعه مـن الطعـام وبعـد الفـراغ مـن الأكل والـذي يقـوم بـه بـأسرع مـا يمكنـه يمـص كل إصبـع بصـوت مسـموع ثـم يغسـل فمـه ويديـه ويحـاول أن يتكـرع بصـوت مسـموع ليعـبر بذلـك عـن إعجابـه بالطعـام، ويوضـع الصحـن الوحيـد الـذي تتكـون منـه الوجبـة عـلى الأرض الجـرداء أو عـلي الـبرش ويجلـس النـاس حولـه ويقضـون عليـه في نهـم»[٣٣].

17.كرم الضيافة:

الكـرم علامتـه تقديـم المأكـولات والضيافـة لا تكتمـل إلا بطعـام أو شراب [٣٤] ولهـذا تنـاول بريـم بالذكـر إحـدى أهـم وأقـدم خصائـص السـلوك السـوداني الأصيـل ألا وهـي كـرم الضيافـة حيـث ذكـر « وإذا توغلنـا أكثـر في الحيـاة اليوميـة السـودانية وجدنـا عـادات جديـرة بالاعتبـار. فالسـوداني إن أراد أن يكـرم ضيفـه بصـورة خاصـة ذبـح شـاة أو عنـز إن كان معـسرًا، وجهـز لـه وليمـة شـهية. وهـو يـأكل عـادة طعامـه اليومـي- العصيـدة أو اللقمـة- لكنـه محـب للضيـف حتـى أنـه يعتـبر يـوم نـزول الضيـف أو الصديـق عليـه يـوم عيـد، ويقـوم بـكل مـا في وسـعه ليسـعد ضيفـه. وإذا كان قـادرًا فإنـه يقيـم حفـلًا ورقصًـا أمـام كوخـه ويجمـع جيرتـه. وحتـى الغربـاء يجـدون ضيافـة حسـنة وطيبـة مـن السـوداني. وهـو يقتسـم مـا لديـه مـع الحجـاج الذيـن يقصـدون مكـة، فينتقلـون مـن مـكان لآخـر، سـائلين النـاس العـون في الطريـق. ويعتقـد السـوداني أن الضيافـة تمتـد حتـى مـا وراء القـبر. وقـد حكـى لي أن مـن يريـد قضـاء ليلـة في المقابـر لـن يجـد راحـة إلا إذا اختـار قـبرًا ونـام فوقـه، أمـا إذا نـام بـين القبريـن فـإن الميتـين يتجاذبانـه كل يريـد اسـتضافته لقـبره ليقـوم بفـروض حسـن الضيافـة، فيقـضي النائـم الليلـة يُدفـع هنـا وهنـاك دون أن ينعـم براحـة وتعذبـه الأحـلام المزعجـة « [٣٥].

18.الخمر « المريسة وأم بلبل» وأماكن بيعها:

أمـا الخمـر أو المريسـة « وهـم في شربهـم للخمـر بنفـس القـدر مـن البـداوة، ويذهـب كلا الجنسـين إلى قطاطـي الخمـر مؤتزريـن قطعـة مـن القمـاش فقـط حول الردفـين ولا يعرفـون مـا الـذوق، فالرجـل يرقـد شـبه عـار في عنقريبـه ويجـرع

مريسته في نهم، ولا يقوم حتى لقضاء أهم الحاجات وهو لا يعرف معنى الخجل بل يظل يشرب ما يستطيع ويبقى إلى النهاية مخمورًا فوق عنقريبه. والمريسة أو البلبل شراب مسكر يصنع من الذرة أو الدخن ويستهلك بكميات كبيرة في الخرطوم وهي تصنع في أماكن مخصصة وبطرق متعددة، وفي الخرطوم تبل الذرة وتوضع في مكان رطب بين أوراق العشر حتى تنبت قليلًا -تزرع- ولو قارنا المريسة بالبيرة عندنا فإن الذرة تقابل الشعير والعشر الخميرة. وبعد أن يتم تزريع الذرة تبعد أوراق العشر وتترك الذريعة لتجف تحت الشمس ثم تسحن على المرحاكة ثم يصب عليها الماء ويغلى في أوعية من الفخار، وعادة ما يترك ست أو ثماني ساعات على النار ثم يبرد في بطء وتضاف الخميرة لذلك ويترك ليتخمر وما ينتج عن ذلك هو ما يعرف بالمريسة. وإذا تمت تصفيتها بمصفى من جريد النخل وغليت للمرة الثانية تسمى بلبل وتضاف إليها الخميرة، وتترك ثم تشرب بعد ساعات قلائل من ذلك. ويتم توزيعها في برام مستديرة كبيرة سعة الواحدة منها حوالي ست أو ثماني زجاجات وتباع برمة البلبل في الخرطوم بقرشين، ولا تستخفن بهذا السعر الزهيد فالربح الناتج من صناعة البلبل هو ٣٠٠٪ أو ٤٠٠٪ من تكلفة صنعها. ومذاق البلبل حامض نوعًا ما لكنه غير منفر، وهي مسكرة وحتى الأوروبين يحتسونها بكميات صغيرة ويستمتعون بها وهي تزيد من تبخر العرق، وهو مطلوب هنا للمحافظة على الصحة في هذه البلاد كما أنها مغذية جدًا « [٣٦].

أما عن أماكن بيع الخمر أو البلبل في الخرطوم فقد ذكر بريم» وهنالك خمارات خاصة لبيع البلبل في الخرطوم حيث يقابل المرء بنات الهوى أيضًا. كان الأغنياء والوجهاء في الخرطوم يستخدمون هذه الحانات للكسب الحرام وذلك قبل مجيء لطيف باشا، كانوا يشترون عددًا من فتيات القالا الجميلات ويؤثثون لهم –دانقة– ويختلقون مسألة بيع البلبل ويحملون الفتيات على بيع الهوى ويفرضون عليهن مبلغًا شهريًا قد يصل إلى مائتي قرش من كسبهن الحرام، وهم يرون في هؤلاء الجواري مصدرًا للثراء الوفير وقد أبطل لطيف باشا كل ذلك في صرامة وبفرض عقوبة تصل إلى الجلد ألف سوط» [٣٧].

19.تدخين التبغ والتمباك:

أما عن تدخين التبغ فقد ذكر « قليل من السودانيين يدخن التبغ، ولكنهم رجالًا ونساء يمضغونه دون استثناء وهم يختارون نوعًا ثويًا يخلطونه

بقدر من الرماد والعطرون ولا يرى الواحد منهم إلا وفمه محشو به رغم أنه يبدو منفرًا بهذا الشكل»[٣٨].ربما هنا نلاحظ أن بريم قد خلط بين شيئين يبدوان له واحد أو قد يكونا في ذلك الزمان شيئًا واحدًا ألا وهما التبغ الذي يتم تدخينه، والتمباك الذي يوضع في الفم اليوم، وليس يمضغ. وربما يكون في ذلك الزمان نوعًا منه يمضغ أو هنالك شيء ما يشبه القات كان يستخدم كأحد المكيفات لبعض سكان الخرطوم.

20.الأطفال:

أما عن ذكر الأطفال وحياتهم في الخرطوم في تلك الفترة فلقد ذكر بريم بأن « أطفال السودانيين مخلوقات مهملة بشكل فظيع، وحتى بلوغ السادسة يمشي الأولاد والبنات عراة وبعد ذلك يلبس الأولاد سراويل قصيرة وتلبس الفتيات الرحط، عندئذ يتم شلخ الوجه كما يفعل النوبيون بعدد من الشلوخ المتوازية والتي تعتبر آثارها نوعًا من التجميل للوجه ويبدو أن هذه العادة ماخوذة من النوبيين لكنها ليست عامة في كل مكان»[٣٩].

21.الزواج:

أما الزواج في مدينة الخرطوم وما يتعلق به من مراسم وغيرها فقد ذكر بريم « وعند زواج السوداني لا تقام احتفالات خاصة، إلا فيما ندر، فمتى بلغ الصبي عامه الخامس عشر أصبح عادة رجلًا وتكون الفتاة صالحة للزواج حين تبلغ الثالثة عشر، ولحسن الحظ لا يتبع السودانيون العادة المصرية السيئة حيث تزوج الفتاة في طفولتها بل يتركون للطبيعة مجراها حتى تكمل عملها دون تدخل من البشر. وعلى السوداني أيضًا أن يقدم مهرًا يقل عمَّا هو في مصر ويدفع عادة دفعات قد تستغرق بعض السنين، ويقوم فقيه بعقد القران في سرعة وسط تلاوة آيات من القرآن تتصل بالزواج»[٤٠].

أما فيما يتعلق بالمهور «... مع أن المهر ضئيل في السودان فإنه يحدث في أحيان كثيرة أن يمتنع الأب عن الموافقة لزواج ابنته بقصد أن يرفع المهر، فالمسلمون في كثير من البلاد المسلمة ينظرون إلى الزواج كمعاملة تجارية، وليس بمستغرب أن يحاول المرء أن يستخلص منه كل ربح ممكن ولأن تعطيل بعض الزيجات قد يؤدي إلى نقص في عدد السكان. أقامت الحكومة في السودان مؤسستها الخاصة ... فالفتيات يرحن ويجئن دون حجاب كاشفات الأوجه ويمكن أن يوقدن نار الوجد في قلوب الشباب بجمالهن ولمساعدة الشباب للزواج من

الفتيات قبل أن يصبحن عانسات قبيحات غير قادرات على الإنجاب ابتدعت الحكومة التركية مكتب ناظر الزيجات وهو منصب أكتسب أهميته في السودان والناظر هنا شخصًا روحي يسافر متنقلًا في كل أنحاء السودان من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى أخرى، ويستخبر عن القادرين على الزواج والراغبين فيه وهو يسأل البنات إن كن يرغبن في الزواج، فإن أجبن بنعم زوجهن للفتى المحبوب بالحسنى أو القوة، وهو الذي يقرر المهر وله مساعد عليه أن يعيد إلى الآباء المعاندين صوابهم، ويجمع أتعاب الناظر ويقوم إجمالًا كمساعد دنيوي له. وينذر أن يقترن السوداني بأكثر من حليلة واحدة في نفس الوقت لكنه يحب التغيير في علاقاته الزوجية ولذا فهو يطلق امرأته دون سبب حقيقي في الغالب وهذا حق له في الشريعة، وعندما تكون لديه جواري فإنه يرفعهن إلى مرتبة الحريم، ويعامل أطفالهن معاملة أطفال نسائه الشرعيات، وأحيان تفر زوجاته إلى ذويهن إن أساء معاملتهن، وهنا يسرج حماره ويلحق بزوجته النافرة ويعيدها بالقوة إلى بيته، ويؤدبها لكنه في الغالب يدخل في مشاحنات وخصومات جدية مع أقربائها، وإن كانت المرأة ابتعدت عنه دون سبب وجيه وبختها صديقاتها وقرعنها وربما ضربنها وأعادنها فورًا إلى زوجها» [٤١].

22.الموت:

أما عن الموت فقد ذكر» عندما يسقط السوداني فريسة للمرض ويخشى دون أجله، فإن أصدقاءه وجيرانه يجتمعون في داره يزينون له مباهج الجنة، ويأخذون شهادته ويرددون الشهادة -لا إله إلا الله ومحمد رسول الله،- فيردد المريض أوالمحتضر وعندما يصدر عنه ذلك يوقن كل من سمع زفراته الأخيرة أنه مات مسلمًا حسن الإسلام، وحالما يغمض جفنه بعد موته ينطلق عويل النسوة في داره منبهًا عن موته، ولدى سماع صراخ النعي يهرع الجيران إلى بيت البكاء ويغسل الميت ويكفن والكفن قطعة طويلة من القماش من القطن الصافي، ويمكن لأفقر الناس أن يشتريه أو يحصل عليه لقريبه الميت من أهل البر من مواطنيه، ولن يبخلوا به عليه، وإذا كانت الوفاة صباحًا يتم الدفن في نفس اليوم، أما إذا كانت مساء أو ليلًا فيدفن في صباح اليوم التالي»[٤٢].

أما عن طريقة دفن الموتى « ويتم الدفن وفقًا للتعاليم الإسلامية، فالمقابر في الخلاء بعيدة عن أماكن السكنى، وهناك يُحفر القبر بعمق ثلاثة أو أربعة أقدام وفي مكانٍ عالٍ في الأغلب، ويحمل الجسد الملفوف فوق عنقريب

إلى المقابر، يحمله عدد كبير من المشيعين، الرجال يغنون والنسوة يعولن، ويوضع الميت في القبر بحيث يكون الوجه مستقبلًا مكة والكعبة»[٤٣].

23.الأسلحة:

كانت الأسلحة أحد العناصر المهمة للشخصية السودانية على مدار تاريخها أما في الخرطوم حينما زارها بريم فقد ذكر أنه « حتى عام ١٨٥٠م كان الرجل منهم يحمل رمحين طول الواحد منهما ثمانية أقدام ويستخدمهما دفاعًا وهجومًا، وقد منع لطيف باشا ذلك، لكنه استثنى البدو، وبذا حد من حوادث القتل العديدة ولكن صورة السوداني فقدت كثيرًا من أصالتها وتفرد شخصيتها»[٤٤]. وأشار أيضًا «... وفي بعض البيوت يرى المرء أسلحة محلية كالحربة والدرقة -الدرع- المصنوعة من جلد الغزال أو التمساح والسكين والسيف الطويل ذي الحدين الذي يحمله الوجهاء والرؤساء ومرشدو القوافل، كما يحمل البعض هراوات من خشب الأبنوس وهي من أسلحة أهالي النيل الأزرق، أما السلاح الناري فيندر أن يحمله غير الذين قطعوا المسافات الطويلة سفرًا ورأوا بلادًا أكثر تحضرًا واتخذوا عاداتهم «[٤٥].

24. النظام الإداري والقضاء :

بالنسبة إلى النظام الإداري في السودان في تلك الفترة فقد ذكر « الخرطوم هي مقر الباشا الذي بعثته الحكومة المصرية لإدارة السودان الشرقي.. يغير الحاكم كل ثلاث سنوات في زمن السلم ويعود إلى مصر... ليأخذ منصبه السابق أو منصب أفضل ويسمى باشا السودان حكمدار السودان وهو أعلى سلطة في البلاد وبيده حق إعلان الحرب وإقرار السلام، وهو القائد الأعلى للجيش. إما عن بقية الموظفين بالسودان فهم تحت امرته، وهناك مدير لكل مديرية يحمل لقب ورتبة بيه، وله عدد من الكشاف هم رؤساء مراكز وتحتهم رؤساء مناطق باسم قائمقام ولكل هؤلاء رتبة عسكرية وإلى جانب ذلك هناك في كل قرية شيخ بلد – العمدة – ويجلس القاضي المدني مع القاضي الشرعي بنفس الطريقة كما في باقي البلاد المحمدية. والسودان في دستوره الراهن دولة عسكرية وكل القائمين بالأمر في المديريات أو القرى من الباشا إلى القائمقام هم في الجيش الحالي رتبة ومكانة.... أما قادة الجيش فهم أتراك أو كانوا عبيد أتراك عتقوا وجيء بهم إلى هنا وهم الشركس وأهالي جورجيا والقوقازيين»[٤٦].

أما القضاء والمحاكمات والشكاوي فقد أشار « القضاء هنا جزئي وتتم

المداولات باللغة العربية - والديوان - صالة المحكمة الخاص بالموظف المسؤول مفتوح للجميع ويمكن لأفقر الناس وأوضعهم أن يدخل متى شاء ويجب كتابة عرض حال في ورق مختوم يرفع إلى القاضي والذي يكتب حكمه في نفس الورقة ويتخذ القاضي قراره بعد مراجعة الطرف الثاني، وهو غالبًا ما يقضي بأحكام الشريعة أو تقديره الخاص. وقد وضع لطيف باشا صندوقًا في باب الحكمدارية لكي توضع فيه الشكاوى والالتماسات ومن ساعة إلى أخرى ينظر ما به من شكاوى ويقضي في أمرها في ظرف أربع وعشرين ساعة. ويقوم الأقباط بخدمة الحكام ككتبة ومحاسبين أما المسائل البوليسية فهي من اختصاص الجيش المسؤول عن مشاكل الأمن والسلام، والخدمات كالعمل الإجباري والبريد وخدمات أخرى... وفي وقت مضى كان بالسودان عدد من الأسلحة المختلفة، الأرناؤوط والمغاربة والشايقية .. لكن المغاربة والشايقية قد حلت وحدتاهما الآن، وهذه الأسلحة لا تختلف في سلاحها فحسب، بل في ألوانها أيضًا فالارناؤوط بيض والمغاربة صفر والشايقية سود»[٤٧]. ١٣١.

25.التجارة والنشاط الاقتصادي:

فيما يتعلق بالتجارة والنشاط الاقتصادي في الخرطوم في تلك الفترة فقد ذكر بريم» تشكل التجارة أهم حرفة في السودان رغم أنها لم تصبح حرة إلا منذ عام ١٨٥٠م، وفيما سبق كانت كل المواد الرئيسية للتجارة تحت احتكار الحكومة وكانوا يشترون المحاصيل السودانية – وأرجو أن لا يساء فهمي هنا- وسن الفيل والصمغ العربي والتمر هندي إلخ بأسعار زهيدة وكسداد للضرائب المفروضة ثم تباع هذه المواد في مصر بربح هائل، ولكن الاحتكار قد رفع الآن ومع ذلك ما زالت الحكومة تشارك في تجارة البلاد وتجارة الرقيق حكرًا لها وتتم على أيديها... وللتجارة في الخرطوم أهميتها وتعكس الموقع الممتاز للمدينة فهي على ملتقى نهرين هما شرايين قلب إفريقيا، مما جعل المدينة نشطة بالحركة التجارية. إن النهر في إفريقيا يعني التجارة أكثر مما يعنيه في أوروبا حيث الطرق الحديدية ووسائل المواصلات الأخرى... ولقد تم نمو الخرطوم سريعًا بفضل التجارة وأصبحت بذلك أهم مدينة تجارية بالسودان مثلما هي عاصمته، ومحلاتها التجارية هي أغنى مخازن البضاعة في وسط إفريقيا» [٤٨].

أما عن بعض نماذج المحاصيل والمنتجات فقد ذكر» ومن المحاصيل والمنتوجات هناك العاج والأبنوس وريش النعام والصمغ العربي والخروع

والسنامكة والتمر هندي والنيلة والبن من الحبشة والعسل والتبغ من سنار وجلود النمر من دارفور. وهناك الرقيق من الحبشة وقيسان وتقلي ودارفور، والجمال من عرب البشاريين والخيول من الكبابيش ومن دارفور، والأبقار والأغنام والضأن من مختلف القبائل البدو الرحل، والذرة والدخن من أعالي النيل الأزرق وكردفان، والمصنوعات الجلدية من واد مدني...إلخ وعبر الأوروبيين يجد المرء أحيانًا أشياء غير مألوفة في الحوانيت، منها على سبيل المثال الشمبانيا والنبيذ الفرنسي الأحمر وحتى النبيذ الأبيض. وهناك خمر كالفيرموث التي صارت منذ زمن شراب الأوروبيين والأتراك، وفي عام ١٨٥١م وجدت ولاعات من الشمع في يد أحد السودانيين، وكان مغتبطًا بها، ويكثر الغش في حالة البضائع الأوروبية فالساعات المطلية بالذهب تباع باعتبارها ساعات من الذهب الخالص وبالطبع فإن الذين يقومون بالغش في هذه الحالات هم الأوروبيون» (٤٩).

26.البريد:

أما عن البريد والمراسلات فنجده قد ذكر « وللحكومة طريقان فقط للبريد أحدهما من الخرطوم إلى القاهرة، والآخر من الخرطوم إلى الأبيض. وقد حسنهما لطيف باشا بحيث أصبح الجواب يصل من الخرطوم إلى القاهرة في بحر ٢٥يومًا. وما أعنيه بتحسين البريد ليس بناء طريق، إذ ليس هناك طرق بهذا المعنى في إفريقيا، وانما قصدت تنظيم وضبط مواعيد عمال البريد. ويقوم من الخرطوم أسبوعيًا اثنان من الهجانة يومي الثلاثاء والجمعة بالبريد إلى مصر، ويبلغان بربر المخيرف في خمسة أيام ثم بعد ١٢ أو بعد ثلاثة عشر يومًا يبلغان كورسكو وبعد ١٦ أو ١٨ إلى أسوان حيث يسلمون البريد والرسائل ويمنح رجال البريد راحة كل يومين ويستخدمون إبل بشارية سريعة وهذا النظام بالمقارنة مع أواسط إفريقيا يستحق الإشادة وأن شخصيًا لم أفقد أي بريد خاص بي « (٥٠).

27.حالة الطقس:

أما عن حالة الطقس في الخرطوم فنجد أنه أشار إلى « أن طقس الخرطوم من أردأ أنواع الطقس بالنسبة للصحة، وتقول الإحصائيات أن ٨٠٪ من الأوروبيين الذين يضطرون للإقامة سنوات عديدة متصلة بالسودان يموتون أثناء تلك الإقامة. إن موقع المدينة نفسه بين نهرين يغمرون الشواطئ بالماء زمن الأمطار، هو بالنسبة لنا في أوروبا دليل على عدم مناسبته للصحة ونسبة

الوفيات في المدينة أكثر من أي مدينة في مثل موقع الخرطوم في أوروبا. إن طقس السودان ضار بصحة الإنسان وحتى الأهالي السود يعانون منه معاناة البيض. ويمكن تقسيم مواسم السودان إلى موسمين، موسم الجفاف وموسم الأمطار، وليس بينهما أي موسم انتقالي، فالواحد منهما يتبع الآخر فجأة، والخريف هو موسم الأمطار عند العرب ويبدأ في يونيو أو يوليو ويستمر حتى أكتوبر وتكثر الأمطار في الجنوب عنها في الشمال ويبث الخريف الحياة في كل شيء فهو يكسو الخلاء الجاف المحترق بكساء جديد غني بالزهور. في شهر مارس وإبريل عندما ترسل الشمس عموديًا على السودان وتكاد أن تبلغ ذروة حرارتها تبدأ الرياح الجنوبية في الهبوب بشكل قوي ومتصل وكانت الرياح قبل ذلك شمالية وتزيد هذه الريح الجنوبية الحرارة وتصبح ذات طبيعة كهربية يضيق معها تنفس الإنسان وتخيف الحيوان وتجفله، وهي الرياح المشبعة بالسموم في الصحراء... في منتصف شهر أغسطس يبلغ النيل الأزرق أعلى منسوب له ثم يبدأ في الانخفاض شيئًا فشيئًا حتى يكتمل انخفاضه في فبراير، أما النيل الأبيض فإنه يبلغ أعلى منسوب له في شهر أغسطس وفي هذا الوقت من السنة يكون منظر مقرن النيلين بديعًا، تكون صفحة الماء ظاهرة أمام الناظر من مسافة نصف ميل وتغطي المياه كل الأراضي المزروعة الواقعة بين الخرطوم والنهرين ولا يرى من الجزيرة الواقعة بين النهرين سوى الأشجار المغطأة بكل أنواع الطيور «[٥١].

28.الأمراض:

أما عن الأمراض التي كانت سائدة في الخرطوم فقد أشار إلى أنه « ...فقط عند نهاية الخريف حين تجف الأرض تحت وطأة الشمس المحرقة وتتصاعد الأبخرة السامة النتنة تنشط الأمراض وتشتد ولا ينجو منها إلا قلة من الأجانب ويعاني منها السودانيون... ويقيني أنهم يشقون بالأمراض أكثر لأنهم لا يسارعون إلى العلاج قبل بداية المرض. ونسبة الوفيات بين الأهالي في شهري سبتمبر وأكتوبر عالية جدًا، ولكن إيمانهم بالمقدور والمحتوم هو الذي يمنحهم الشجاعة والجلد على الحياة عندما يطغى عليهم المرض» [٥٢]. ومن أمثلة الأمراض نجد الحمى الراجعة حيث أشار» ومن أمراضهم الحمى الراجعة وهي نوع من الملاريا الخفيفة وليست خطرة إذا وجد المرء العناية الطبية، ولكنها تضعف البدن في وقت وجيز حتى يعجز المرء عن الحركة

والعمل ويسبقها ضيق في الصدر وخوف وصداع متكرر ثم يتبع ذلك برد شديد وتقلصات في كل أعضاء الجسم وغثيان وسخونة جافة، ويصبح وجه المريض مصفرًا أثناء شعوره بالبرد، وتصكك الأسنان ويحمر اللسان ويطغى النزوع إلى التقيؤ، ويصاب المريض بظمأ حاد ولكن الأمعاء ترفض الماء مع تقلصات حادة في عضلات البطن ويصبح الجسم واهنًا وفاقدًا للإحساس فيدخل المريض في غيبوبة وهلوسة ولا يمكن أن يظل باقيًا في مكان واحد ويعاني في أغلب الأحيان من انتفاخ وغازات وتصيب هذه الحمى أقوى الناس لكنها تقل بين النساء منها بين الرجال، وبعد زمن يطول أو يقصر تجف السخونة الجافة ويتفصد العرق من كل مسامات الجسد وكلما كثر كان أفضل ويحس المصاب براحة عظيمة، لكنه يحس أيضًا بفتور شديد ثم يبدأ حاله في التحسن»[٥٣].

وأشار كذلك إلى حمى سنار حيث ذكر « وأشد الحميات فتكًا بالأوربيين هي حمى سنار ولأن البحوث عنها قليلة فإن أفضل الأطباء في السودان الشرقي لا يعرفون عنها الكثير وأعراضها الصداع الفظيع المتكرر ويبوسة الجلد والهذيان والتقيؤ والتشنجات الحادة ثم ينتهي الأمر في اليوم الثالث بموت المريض وعادة ما تنتشر حمى سنار في نهاية موسم الأمطار وتتخذ شكلًا وبائيًا في بعض الأحيان فتفتك بأهل مكان الوباء «[٥٤].

أما الكولرا والدوسنتاريا وضربة الشمس والسيلان فقد ذكر « وهناك الكولرا وإن كانت نادرة في السودان ويطلقون عليها اسم الهواء الأصفر ويخشونها للغاية .وهناك الدوسنتاريا وإن لم تكن بنفس القدر من التفشى كما في مصر لكنها أقوى وتنتهي بموت المصاب. وضربة الشمس في السودان رغم ندرتها أخطر مما عليه في مصر ويحدث أن يشكو أشد الناس صحة من الصداع في الرأس ثم بعد دقائق معدودات يفقد وعيه ويغمى عليه ويموت بانفخار الشرايين. ويقال إن السيلان قد دخل السودان مع الجنود الأتراك. وينذر أن يرى المرء مشلولًا بين السودانييناإما مقعدًا، كما أن كل العلل والأمراض الجسدية المرتبطة بالعيش الناعم المترف للشعوب المتحضرة تنتفي في السودان» [٥٥].

الخاتمة:

مـازال الحديـث فياضًـا عمَّـا أوردهـا الفريـد إدمونـد بريـم عـن السـودان والخرطـوم، ومـا هـذه إلا إشـارات بسـيطة لمـا ذكـره عـن مدينـة الخرطـوم وسـكانها وطقسـها وأمراضهـا، فالكتـاب بـلا شـك قيـم جـدًا وبـه مـادة علميـة غزيـرة في ضروب علـوم كثـيرة منهـا الآثـار والعلـوم الطبيعيـة والأثنوغرافيـا وغيرهـا. ومـن مجمـل الحديـث عـن الفريـد إدمونـد بريـم وتجوالـه في السـودان وعـن تعليقاته في كتابـه « رحلـة بريـم في السـودان « نسـتطيع أن نقـول إنـه مراقـب دقيـق لأدق الأمـور التـي شـاهدها وعايشـها هنالـك، وملاحـظ أنـه فطـن لأبسـط العلامـات والإشـارات والتصرفـات والأحـوال، ومـا كان يلفـت انتباهـه مـن سـلوك سـكان البلاد، والكـوارث التـي واجههـا واحـدة تلـو أخـرى، بـدًءا بالمـرض الـذي مـا يـكاد يُشـفى منـه حتـى يقـع بـه ثانيـة وثالثـة، ثـم مـوت أخـوه أوسـكار الـذي كان برفقتـه، والطقس...إلـخ. ورغـم هـذا وتلـك مـن المصاعـب والعذابـات فقـد أنجـز بريـم مـن وراء رحلتـه إلى السـودان عمـلًا في علـم الحيـوان جديـرًا بالتأمـل والتقديـر، وهـو مـا زال يُشـكر عـلى ذلـك الجهـد ومجابهـة الأخطـار حتـى الآن في أوروبـا وغيرهـا، ومـازال قيـد الاعتبـار وأساسًـا لدراسـات عديـدة في مجـال العلـوم الطبيعيـة، أمـا رحلتـه ورغـم مـا يعتريهـا مـن مشـكلات التخلـف في فهـم الآخـر والصمـت أقلـه عـن النزعـة الاسـتعمارية، إلا أنهـا تعـبر بحـق عـن قطعـة أدبيـة صادقـة [٥٦]. ولعـل في الختـام نـورد بعـض المقتطفـات لمـا أورده بريـم كمقدمـة لليومياتـه» ... إن إفادتـي هـذه صـادرة عـن شـخص كاد أن يكـون مواطنًـا لشـمال شرق إفريقيـا، ويمنـح جنسـيتها ففـي فـترة إقامتـي الطويلـة في تلـك البـلاد، تعلمـت أن أحتمـل الصعـاب التـي تبـدو للوهلـة الأولى غـير محتملـة عـلى الإطـلاق، وتعلمـت كيـف أحـترم شـعبًا لا يـرى الغريـب العجـل إمكانيـة عقـد صداقـة معهـم، ووقفـت عـلى سـحر وجاذبيـة أماكـن هـي للغريـب مواطـن رعـب، وكل مشـقة احتملتهـا وكل غـم خبرتـه سـجلته دونمـا تخفيـف أو تغيـير، لكننـي حاولـت جهـدي أن أصـور بدقـة متناهيـة وأمانـة كل ماهـو رفيـع حقًـا، فـإن تحدثـت عـن عيـوب ومثالـب أهـل إفريقيـا فإننـي لـم أحجـب شـمائلهم... أمـا الغـرض الوحيـد الـذي جهـدت لبلوغـه مـن وراء عمـلي هـذا فهـو توخـي الحقيقـة كاملـة في مـا أرويـه وربمـا أكـون قـد أخطـأت هنـا أو هنـاك لأن اعتمـادي عـلى تصوراتـي ورؤيتـي الشـخصية قـد يكـون خدعنـي، لكننـي لـم أورد أبـدًا مـا يجـافي الحقيقـة، ولـذا فإننـي أزكـي هـذا العمـل لمشـاركة النـاس فيـه وهـو خـالٍ مـن البريـق والتزويـق ...» [٥٧]. ولعـل يبـدو واضحًـا مـن هـذه المقدمـة

التي أوردها بريم مدى تجرده وأمانته وتوخيه الحذر فيما يكتب أو يورد عن السودان وأهله، ويحمل ما كتبه عن السودان بين طياته مصداقية الرواية عن تلك الفترة من تاريخ السودان، ولكن بالرغم من ذلك يظل الحاكم لنا في البحث العلمي هو التقصي وإبراز الحقيقة والتي بلا شك ليست ولن تكون مطلقة نابعة من مصدر واحد، ومن دون تعظيم أو تكذيب للرحالة دون الآخر، إن ما أورده بريم عن الخرطوم وعن السودان يظل يحمل نوعًا من التكريم والاحترام للسودانيين وسلوكياتهم الإيجابية ومحاولة إيجاد تبرير لتلك السلبية منها. وهو بلا شك يظل مرجعًا لا غنى عنه ويحمل الصدق بين صفحاته ما لم تأتِ بينة أخرى تثبت العكس فيما اورده.

ملاحق

صورة توضح الفريد إدموند بريم وتوقيعه

صورة لغلاف كتاب رحلات بريم في السودان

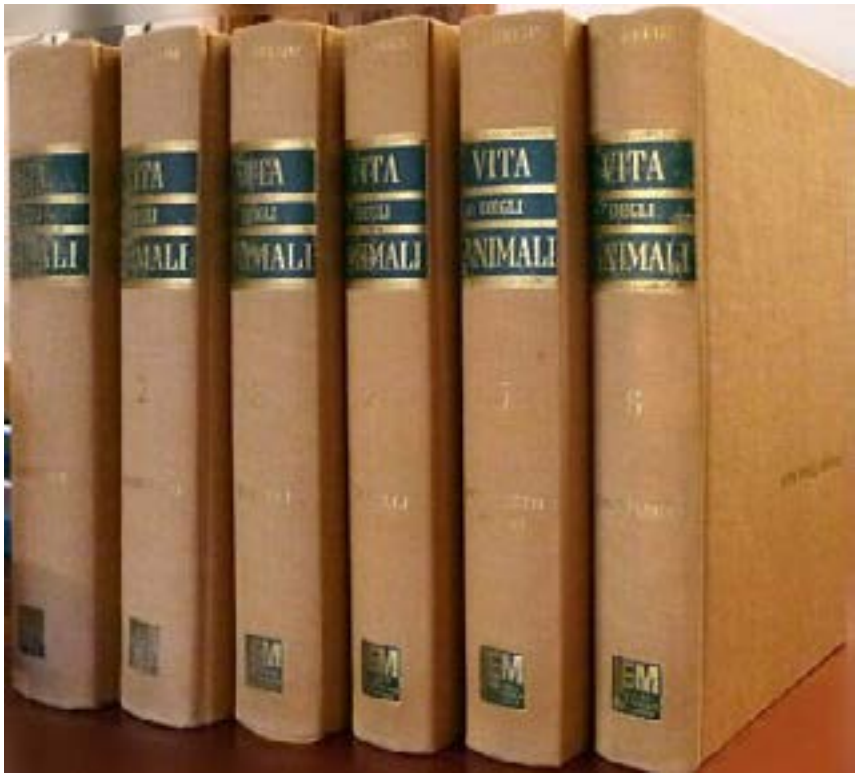

أحد مؤلفات الفريد إسدموند بريم حياة الحيوان

الهوامش:

(1)فهيم، حسين محمد (١٩٨٩). أدب الرحلات. سلسلة عالم المعرفة ١٣٨. المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب، الكويت.

(2) آل عواد، فؤاد (٢٠٠٦م). السودان والرحالة الالمان رحلة الفريد أدموند بريم العلمية ١٨٤٧-١٨٥٢م. في السودان وأفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب أكتشاف الذات والآخر، أبحاث ندوة الرحالة الغرب والمسلمين دورة أين حوقل الخرطوم فبراير ٢٠٠٦.دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى ص ٤١١-٤٢٥.

(3)آل عواد، المرجع السابق، ص٤١٢-٤١٣ .

(4)آل عواد، مرجع سابق،ص ٤١٣.

(5)بريم، الفريد أدموند (٢٠١٠م). رحلة بريم في السودان. ترجمة النور عثمان أبكر. دار مدارك للنشر، الخرطوم.

(6)بريم، المرجع السابق، ص ١١٠-١١١.

(7)بريم، مرجع سابق، ص ١١١.

(8)بريم، مرجع سابق، ص ١١١.

(9)بريم، مرجع سابق، ص ١١١-١١٢.

(10)بريم، مرجع سابق، ص ١١٢.

(11)بريم، مرجع سابق، ص ١١٢-١١٣.

(12)بريم، مرجع سابق، ص ١١٣.

(13)بريم، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤.

(14)بريم، مرجع سابق، ص١١٤.

(15)بريم، مرجع سابق، ص ١١٤-١١٥.

(16)بريم، مرجع سابق، ص ١١٥.

(17)بريم، مرجع سابق، ص ١١٥-١١٦.

(18)بريم، مرجع سابق، ص ١١٦.

(19)بريم، مرجع سابق، ص ١١٦.

(20)بريم، مرجع سابق، ص ١١٦-١١٧.

(21)بريم، مرجع سابق، ص ١١٨.

(22)بريم، مرجع سابق، ص ١١٨.

(23)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(24)بريم، مرجع سابق، ص ١١٩.

(25)بريم، مرجع سابق، ص ١١٩-١٢٠.

(26)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٢.

(27)بريم، مرجع سابق، ص ١١٩-١٢٠.
(28)فهيم، مرجع سابق، ص ١٤٣.
(29)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٥-١٢٦.
(30)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٦.
(31)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٦.
(32)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٧.
(33)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٧.
(34)فهيم، مرجع سابق، ص ٣٤.
(35)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٥.
(36)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٨.
(37)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٢٩.
(38)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٩.
(39)بريم، مرجع سابق، ص ١٣٠.
(40)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٢-١٢٣.
(41)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٣-١٢٤.
(42)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٤.
(43)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٤.
(44)بريم، مرجع سابق، ص ١١٧.
(45)بريم، مرجع سابق، ص ١٢٩.
(46)بريم، مرجع سابق، ص ١٣٠-١٣١.
(47)بريم، مرجع سابق، ص ١٣١.
(48)بريم، مرجع سابق، ص ١٣٣-١٣٤.
(49)بريم، مرجع سابق، ص ١٣٤-١٣٥.
(50)بريم، مرجع سابق، ص ١٣٧.
(51)بريم، مرجع سابق، ص ١٣٨، ١٤١-١٤٢.
(52)بريم، مرجع سابق، ص ١٤٢.
(53)بريم، مرجع سابق، ص ١٤٢-١٤٣.
(54)بريم، مرجع سابق، ص ١٤٣.
(55)بريم، مرجع سابق، ص ١٤٣.
(56)آل عواد، مرجع سابق، ص ٤٢٤-٢٤٥.
(57)بريم، مرجع سابق، ص ٩-١٠.